الدكتور علي زيعور في تحليل علم نفسي الشيخ محمد عبده (1849 - 1905م)

www.arabpsynet.com/Documents/DocHassanAbduPsychoAnalyis.pdf

د. محمد رضوان حسن
الطب النفسي - لبنان
mohamadradwan.hassan@yahoo.com

عصر النهضة الذي لم نجد فيه فلاسفة، بل فكر فلسفي ظهر في اتجاهات فكرية مختلفة، هو عند الدكتور علي زيعور داخل في ميدان التحليل العلم نفسي الذي يجريه للفلسفة العربية في كتابه "العقل والتجربة في الفلسفة العربية (دار النهضة العربية، بيروت، سنة 2011).

عصر النهضة الذي لم نجد فيه فلاسفة، بل فكر فلسفي ظهر في اتجاهات فكرية مختلفة

هذا العصر هو بنظر الدكتور زيعور "عصر مجتمع عضوي عضواني، قبل صناعي، غير حسابي، ويتصف بعقل تصدى للتخلف الحضاري والسياسي، ولكنه لم يبلغ في ذلك التصدي مستوى أو كثافة نقول فيها إن ذلك التصدي قابل لأن يكون نظرية أو أيديولوجيا أو تخطيطاً واستراتيجيا" (ص 256).

هذا العصر هو بنظر الدكتور زيعور "عصر مجتمع عضوي عضواني، قبل صناعي، غير حسابي، ويتصف بعقل تصدى للتخلف الحضاري والسياسي

الدكتور زيعور ينتقي من هذا العصر الشيخ محمد عبده الذي يرى فيه "عينة تمثل ذروة أو نهاية التجربة العربية النهضوية" (ص 255).

ونجده على هذا الصعيد يتناول قضايا مختلفة تتحدر منها قضايا أخرى، وبالإجمال فالدراسة التحليلية التي تجري هي دراسة تتناول ثلاث مسائل رئيسية هي الطفولة والمراهقة أولاً، ثم الزواج والاهتداء إلى التصوف ثانياً، ويأتي ثالثاً وأخيراً الخروج من التصوف للانضمام إلى الحركة الإصلاحية السياسية الأفغانية والمابعد أفغانية.

* * *

طفولة الشيخ عبده هي نقطة انطلاق الدكتور زيعور، الطفل عبده، كما يشرح الدكتور زيعور معتمداً على السيرة الذاتية للشيخ عبده نفسه، "تعلم القراءة والكتابة في منزل والده". وبدأ يحفظ القرآن في القرية وهو في السابعة، وأتم حفظه في سنتين، فهنا نجاح باهر للطفل، بل نجاح مدوّ، بحيث سمعه صبيان من أهل القرية جاءوا من مكتب آخر "ظناً منهم أن نجاحي – كما يقول الشيخ عبده نفسه – كان من أثر اهتمام الحافظ"، ومعنى ذلك أن الطفل كان الأقوى، كان ناجحاً جداً (ص 264).

قد أيقنت أن لا بخاح لي في طلب العلم. ولم يبق لي إلا أن أعود إلى بلدي وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي"

بيد أن الطفل سرعان ما ترك القرية ليجعله والده ينتقل إلى المسجد الأحمدي في طنطا سنة 1279هـ/1862م. ولكن هذا الانتقال كان صعباً، فهو لم يحمل معه النجاح، بل الإخفاقات. الشيخ عبده نفسه يقول: فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس واختفيت عند

أخوالي مدة ثلاثة أشهر، ثم عثر علي أخي، فأخذني إلى المسجد الأحمدي وأراد إكراهي على طلب العلم، فأبيت، وقلت له: قد أيقنت أن لا نجاح لي في طلب العلم. ولم يبق لي إلا أن أعود إلى بلدي وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي". وانتهى الجدال، كما يروي الدكتور زيعور نقلاً عن الشيخ عبده، بأن تغلب على أخيه ورجع إلى محلة نصر وتزوج سنة 1282هـ على هذه النية وهو في السادسة عشرة من عمره (ص 262).

هذه الصورة للطفولة واليفاع والمراهقة هي، بنظر الدكتور زيعور، "ربما تلخص مسار العمر الإنتاجي ونمط شخصية الشيخ عبده في طرائقها في المواجهة والمجابهة وصياغة التكيف والتوافق مع الذات" (ص 262).

وهذه الصورة – كما يشير الدكتور زيعور – تكشف في الوقت نفسه غياب الأم، أي حرماناً عاطفياً أمومياً، وتكشف حضور الأخ غير الشقيق الذي يلعب دور المتعقب للطفل، الأمر الذي يفصح عن حياة أسرة ربما تكون معقدة بحيث لا يشعر الطفل بوجود الحماية له والاطمئنان والدفء نتيجة "لإغفال الأب الموزع بين محمد وأخيه غير الشقيق وزوجة وزوجة" (ص 263).

يضاف إلى ذلك أن هذه الصورة تعبر، كما يرى الدكتور زيعور، عن تمازق ويأس في نفسية الطالب عبده عندما وجد نفسه مع مصطلحات لا تفهم، فكان في نفسه الشعور باستحالة النجاح، وكان الهروب والاختباء، أي إن الاكتئاب، كما يبين الدكتور زيعور، استحوذ عليه، وقاده إلى سلوك جانح بحث بواسطته عن حضن دافئ وجده في الريفي، في حضن الطبيعة. والمهم في كل ذلك هو أننا نشهد اضطراباً، وهذا الاضطراب يجعل الدكتور زيعور يذهب إلى أنه قد يبقى متحكماً في الشخصية لا سيما وأن الدكتور زيعور يقول بوضوح: "يجب أن لا تكف عن تدبره ووَعْيَنته في تفسير الشخصية وتعامليتها ومواقفها" (ص 263 – 264).

ولكن الواقع هو أن لهذا الاكتئاب والجنوح سبب هام. الدكتور زيعور نجده يبين بأن الانتقال إلى طنطا كان انتقالاً جعل الطفل [الولد] يكتشف بأنه في مكان "غير آمن، غير مساعد". الطفل [= الولد] كان في عامة الثاني عشر. والحضن الجديد الذي انتقل إليه ولّد الشعور اللاواعي بالفقدان، وبأنه متروك، وأشعر الطالب المراهق بالخسارة وعمق انجراح المشاعر بالأمان وبالاحتماء، وفجّر مشاعر القلق الوجودي أو عصاب الطفل اللامرغوب، المتروك". "إن أزمة المراهقة، كما يشرح الدكتور زيعور، تفاعلت هنا عميقاً مع شروط اجتماعية معادية وحقل نفسي اجتماعي غير مساعد. وذاك بنظره، عامل في جملة العوامل المولدة كما المفسرة للعصاب" (ص 264).

المراهقة، وقد أعادت الولد إلى قريته قادته إلى الزواج وهو في السادسة عشرة من عمره.

وجد نفسه مع مصطلحات لا تفهم، فكان في نفسه الشعور باستحالة النجاح، وكان الهروب والاختباء، أي إن الاكتئاب

الانتقال إلى طنطا كان انتقالاً جعل الطفل [الولد] يكتشف بأنه في مكان "غير آمن، غير مساعد". الطفل [= الولد] كان في عامة الثاني عشر. والحضن الجديد الذي انتقل إليه ولّد الشعور اللاواعي بالفقدان، وبأنه متروك، وأشعر الطالب المراهق بالخسارة وعمق انجراح المشاعر بالأمان وبالاحتماء، وفجّر مشاعر القلق الوجودي أو عصاب الطفل اللامرغوب، المتروك

"جاءني [بعد أربعين يوماً على زواجي] وألزمني بالذهاب إلى طنطا. وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر".

لم يكمل الطريق إلى طنطا. فهرب وأرجع

أي إلى زواج مبكر. أي هو كما يشرح الدكتور زيعور، غطى المراهقة، وغطى تغييراتها ومآزقها ضمن الشخصية، والأب الذي جاء بعد أربعين يوماً من الزواج ليطلب من ابنه العودة إلى الدراسة، ساعد، كما يرى الدكتور زيعور، على تحقيق هذه التغطية. "ولعب دور المحدِّد الذي أعتق حركة الانطلاق إلى التغيير والاهتداء. وبالتالي أسهم في استيعاب السلوك الجانح وبتغليف عقدة من المشاعر بانعدام الأمن العائلي والحرمان العاطفي"، والدكتور زيعور يبين أن كل ذلك يحدث بكراهية واحترام تجاه الأب. وهكذا "فعبده اليافع الشاب تجاوز جنوح المراهقة والشعور بالحرمان العاطفي" (ص 264 – 265).

* * *

الصورة الأخرى التي يتوقف عليها الدكتور زيعور هي صورة الاهتداء والخروج من أزمة المراهقة إلى التصوف. هنا نجد الدكتور زيعور يصف والد الشاب عبده "بالأب القاسي"، "المهيب". هو يقول ذلك مستنداً إلى ما جاء على لسان الشيخ عبده نفسه الذي يروي عن والده: "جاءني [بعد أربعين يوماً على زواجي] وألزمني بالذهاب إلى طنطا. وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر". وتكمل الصورة هذه بركوب الفرس وباصطحابه أحد أقاربه، ولكن الشاب عبده لم يكمل الطريق إلى طنطا. فهرب وأرجع الفرس وأرسل إلى والده ما يجعل الوالد يطمئن، أي يصدق ابنه، ولجأ إلى بلدة غالب سكانها من خؤولة أبيه (ص 65).

هذا السلوك يصفه الدكتور زيعور بالسلوك غير المجابه بالملتوي والمتلون تبعاً للوسط النفسي العائلي الاجتماعي. وبعبارة أخرى، الشاب عبده أطاع ظاهراً والده وأخفى الحقيقة التي تعيش في قرارة نفسه ولكن الدكتور زيعور، من جهة أخرى، يبين بأن يوم السفر كان "يوماً شديد الحر ضعفت فيه طاقة الرجل على مداومة السير وركوب الفرس وتحمل ريح عاصفة ملتهبة وغبار شديد". وهكذا، والكلام للدكتور زيعور، تخلى [الشاب عبده] عن مرافقه وعن الفرس وعن السفر وارتحل إلى القرية التي – كما تقدم ذكرها – غالب سكانها من خؤولة أبيه، وتدعى كنيسة أورين، نسبة إلى القديس أوريناس" (ص 266).

هل الشاب عبده، هنا، يهرب فعلاً وحقيقية ويتملص من السفر إلى طنطا، أم أن الواقع هو عدم تحمل السفر في الحر الشديد والحاجة إلى الراحة في أي مكان يستطيع أن يرتاح فيه، فكان اللجوء إلى القرية لا للهرب – كما بيّن الدكتور زيعور – بل للراحة؟

هذا التساؤل يثيره وضع الشاب عبده في هذه القرية التي لم يمكث فيها سوى خمسة عشر يوماً تحولت خلالها حالته وظهرت فيه رغبة جديدة بتفسير نصوص صوفية، ذلك أن الشاب عبده – كما يشرح الدكتور زيعور – فيما كان يقرأ أمام شيخه، رمى فجأة بالكتاب الذي كان يقرأ فيه، وخرج بنفور من المجلس، ولكنه سرعان ما عاد إلى القراءة معتذراً. وأصبح حسن

الفرس وأرسل إلى والده ما يجعل الوالد يطمئن، أي يصدق ابنه، ولجأ إلى بلدة غالب سكانها من خؤولة أبيه

هل الشاب عبده، هنا، يهرب فعلاً وحقيقية ويتملص من السفر إلى طنطا، أم أن الواقع هو عدم تحمل السفر في الحر الشديد والحاجة إلى الراحة في أي مكان يستطيع أن يرتاح فيه

الشاب عبده رأى أمامه شخصاً يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب. وحتى إذا ما رفع رأسه إليه، قال له الشيخ ما معناه: "ما أحلى حلواء مصر البيضاء". فكان من الشاب عبده أن سأله وأين الحلواء التي معك؟". فكان الجواب: "سبحان الله، من جد وجد"

يجد الشاب عبده أن ذلك القول ليس سوى "إلهام ساقه الله إليه ليحمله على

الإصغاء. هذا التبدل، ليس، كما يقول الدكتور زيعور، فجائياً، إذ إن الشاب عبده، في اليوم الخامس، تحول إلى كاره شديد لحياته القديمة ونمطها في العيش اللاهي ومع رفاق سادرين، وحتى إذا ما كان اليوم السابع كان – كما يبين الدكتور زيعور – الاهتداء إلى الدين الحقيقي من ناحية اعتبار القرآن مصدراً لليقين والراحة والاطمئنان (ص 266 – 267).

طلب العلم في مصر دون طنطا

ويتابع الدكتور زيعور سيرة الشاب عبده في الاهتداء معتمداً على السيرة الذاتية للشيخ عبده نفسه، فيبين بأن الشاب عبده رأى أمامه شخصاً يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب. وحتى إذا ما رفع رأسه إليه، قال له الشيخ ما معناه: "ما أحلى حلواء مصر البيضاء". فكان من الشاب عبده أن سأله وأين الحلواء التي معك؟". فكان الجواب: "سبحان الله، من جد وجد". وانصرف الشيخ. وهنا يجد الشاب عبده أن ذلك القول ليس سوى "إلهام ساقه الله إليه ليحمله على طلب العلم في مصر دون طنطا" (ص 267).

اختيار الشاب عبده للحزب الصوفي يوم كان في الأزهر، هذا الاختيار هو تتمة للاهتداء الحاصل، المعاش عن غير قصد أو إرادة واعية

الدكتور زيعور يرى في هذا التحول بواسطة هذا الرمز نوعاً من عملية انزياح إلى النضج في الشخصية التي كانت متمأزقة، جانحة، بل وعصابية". ويذهب الدكتور زيعور إلى أن الشاب عبده كانت أزمته نفسية، فاستطاع أن يتغلب على الانزلاق للجنوح المراهقي، بل هو غطى واستوعب خواف الأب والحرمان العاطفي. ذلك أن كل ما جرى للشاب عبده جرى داخل نفسه: الإشارة، الشيخ أو الحكيم المتبسم، الرسالة، فك رمزها، السير بموجبها... هذه كلها تعبيرات عن حالة نفسية... إنها تجربة معاشة يتغير بها الإنسان وبها ينتقل إلى المعنى الجديد لحياته. وهنا يتفسر – برأي الدكتور زيعور – اختيار الشاب عبده للحزب الصوفي يوم كان في الأزهر، هذا الاختيار هو تتمة للاهتداء الحاصل، المعاش عن غير قصد أو إرادة واعية (ص 267 – 268)، أي إنه حصل عقل ذاتي للذات كشفت به الذات حقيقة هواها ومبتغاها، كشفت الطريق الذي عليها أن تسلكه.

هل الشيخ عبده اكتشف في قرارة ذاته أن التصوف لم يعد يلبي تطلعاته الدينية والوجدانية وأن حركة جمال الدين الأفغاني هي أكثر نفعاً، بل هي الطريق القويم الذي عليه أن يسير فيه؟

* * *

غير أن الدكتور زيعور الذي يشرح كيفية اهتداء الشاب عبده إلى التصوف، لا نجده يشرح ولو بإلمامة بسيطة كيفية خروج الشاب عبده من التصوف وانضمامه إلى جمال الدين الأفغاني في حركته الثورية. الدكتور زيعور يشرح أسباب الاهتداء عامة، فيبين بأن "منها ما يكون بفعل تفكير بطيء مديد. وهذا التفكير قد يجري بوعي وبغير وعي، ومنها أيضاً ما يكون بفعل الحنين إلى الرحم المفقود أو النكوص إلى الفردوس والعدني ومرحلة ما قبل عقدة أوديب، كما ومنها ما يكون بفعل رغبة لاواعية بهدم الذات وانتقاماً منها لأنها خرجت عن سلطة الأنا الأعلى. كما ومنها أيضاً بفعل بروز النزعة الكهلانية التي تتوضح مع التقدم في العمر الثاني وبتأثير المخاوف والحذر من النجاح والفشل" (ص 269). فأي من هذه العوامل لعبت دورها

إنه لا شك أن كل ثورة هي انتفاضة بوعي أو بدون وعي للخلاص من وضع لا يحتمل. والدكتور زيعور يذهب إلى أن "ذلك النمط من الحلول والآليات الدفاعية هو قانون بيحضاري واتجاه عام معروف في الحضارات وعبر التاريخ".

في التخلي عن التصوف؟ هل الشيخ عبده اكتشف في قرارة ذاته أن التصوف لم يعد يلبي تطلعاته الدينية والوطنية وأن حركة جمال الدين الأفغاني هي أكثر نفعاً، بل هي الطريق القويم الذي عليه أن يسير فيه؟

الشيخ عبده، كما هو معروف عنه، منذ أن تعرف بجمال الدين الأفغاني، انضم إليه ليسير في شعار "حرية ومساواة وإخاء" ليناهض الاستعمار، ودخل في "الحزب الوطني الحر" الذي كان شعاره "مصر للمصريين"، وكانت نتيجة كل ذلك، في سنة 1879، أن نفي من القاهرة إلى قريته في "محلة نصر" وأن نفي أيضاً جمال الدين الأفغاني عن مصر. ولكن الشيخ عبده لم يكن ليرتدع عن الثورة، إذ انضم إلى ثورة عرابي باشا سنة 1881. وحتى إذا ما انهزمت الثورة. نفي إلى خارج مصر، إلى لبنان، ومنه سافر والتحق من جديد بجمال الدين الأفغاني ليؤسس وإياه "مجلة العروة الوثقى" التي لم تدم في مقالاتها الثورية أكثر من أشهر قليلة. الشيخ عبده وقد اصطدم بخيبة أمله في تحقيق التحرر والإصلاح بواسطة الحراك الثوري، يترك باريس إلى تونس ومن تونس إلى بيروت سنة 1885، وهنا يتخلى عن العمل السياسي الثوري للعمل بتؤدة وهدوء لإصلاح حال المجتمع عن طريق التدريس الديني والتربية والتعليم، الأمر الذي سهل له العودة إلى مصر.

* * *

هذا الوضع الذي كان فيه الشيخ عبده، ترك التصوف والانخراط في العمل السياسي الثوري، هل هو المقصود عند الدكتور زيعور بعبارة "العمى الهستيري أو النفسي هل لأزمة نفسية اجتماعية وانجراحات؟". ولكن كيف كان عليه أن يكون العمل للخلاص من الحكم الأجنبي؟ إنه لا شك أن كل ثورة هي انتفاضة بوعي أو بدون وعي للخلاص من وضع لا يحتمل. والدكتور زيعور يذهب إلى أن "ذلك النمط من الحلول والأواليات الدفاعية هو قانون بيحضاري واتجاه عام معروف في الحضارات وعبر التاريخ". هو – كما يقول – نمط أرخي ومذهب وانشطار عمودي شاقولي إلى قاهر وضحية يفتش كل من الطرفين عن تطهير نفسه وتسويغ أواليته" (ص 270).

ولكن الإشكال ليس بتسليم أو إقرار الدكتور زيعور بالعمل الثوري كقانون بيحضاري، بل هو في موقفه الذي يرى في سلوك الشيخ عبده ما يثير تساؤلات مختلفة تتعلق بمصداقية الشيخ عبده نفسه في حركته الإصلاحية الثورية، بل وحتى في حركته الإصلاحية الهادئة.

الدكتور زيعور يجد أن هناك علاقة معتمة بين الشيخ عبده والحكم البريطاني، وفي قيعان هذه العلاقة نوع من التعاون اللامتمايز والتحرك – داخل العقل الاجتهادي – بأوالية تغطية الحقل، وحجب الجارح، والذكريات الصدمية، والمخاوف من القاهر على النحناوية والمصير، بل وأيضاً على الأمل بالاحتماء والاطمئنان وإشباع الحاجات الحضارية والدوافع الأساسية

يذهب الدكتور زيعور بتحليلاته النفسية إلى اعتبار "التربويات كملاذ وهمي ولفظي وكأداة سيطرة دفاعية على الابخراح والعجز وعقدة الخصاء

الدكتور زيعور يخلص إلى اعتبار أن الشيخ عبده

الحقل، وحجب الجارح، والذكريات الصدمية، والمخاوف من القاهر على النحناوية والمصير، بل وأيضاً على الأمل بالاحتماء والاطمئنان وإشباع الحاجات الحضارية والدوافع الأساسية (ص 270).

الدكتور زيعور وهو يقول ذلك، لا نجده يوضح العلاقة المعتمة بين الشيخ عبده والحكم البريطاني ولا نوعية التعاون اللامتمايز والمتحرك، بل إن الناظر في سيرة الشيخ عبده يجد ما يخالف هذه المواقف. الشيخ عبده، كما رأينا سابقاً، نفاه الحكم البريطاني من مصر، وهذا النفي لم يكن ليلجمه عن الحراك الثوري. هو لم يصب – كما يذكر الدكتور زيعور – بالتجمد أمام الخوف، ولم يلجأ إلى التظاهر بالموت دفاعاً عن الأنا. وهو لم يلجأ أيضاً إلى الفرار من القاتل، لأن القاتل هو الذي نفاه، ولم يصب بالعمى النفسي بحيث لم يعد يرى الذئب يهاجم الطفل، والسياسي العصابي يبيع المدنيات ويخضع للإمبراطوري". الشيخ عبده في حياته ما توقف يوماً عن رفع صوته مهاجماً الحكم البريطاني بعنف أو بلطف حتى بعد أن عاد إلى مصر وعدل عن السياسة من أجل العمل الإصلاحي الهادئ. هو لم يختبئ، ولجوؤه إلى العمل الإصلاحي بالتربية والتعليم ليس "هروباً من الواقع ومن المحتل، أو أوالية تغطية وإبدال وحلول ماكرة وناقصة القدرة على التكيف الإيجابي". ويذهب الدكتور زيعور بتحليلاته النفسية إلى اعتبار "التربويات كملاذ وهمي ولفظي وكأداة سيطرة دفاعية على الانجراح والعجز وعقدة الخصاء" (ص 270). بل هي أكثر من ذلك، هي – كما يقول – احتماء من القلق النفسي الذي تحدثه أوالية إسقاط المسؤولية أو إنكار الإقرار بالتجريح الذي يحدثه الاحتلال والقاهر الحضاري وتغييب إرادة الأمة... والدكتور زيعور يخلص إلى اعتبار أن الشيخ عبده "في عقله النفسي التربوي، ينقل مسبب الانجراح الحضاري الممثل بالقواهر والعواهر المستبدة البريطانية إلى مكان آخر، إلى ساحة مختلفة وعدو داخلي يقر الجميع بوجوده، ويضفون [= يسقطون] عليه آثامهم ومشاعر المرارة وفشل استراتيجيات الجهاد التنويراني". ويجمع الدكتور زيعور هذه المواقف المستنتجة بتحاليل العلم نفسية في عبارة أخرى حين يقول: "إن الحل التربوي النهضوي دفاعي، مرضي وتعويضي... إنه تمرد وهمي (رمزي، خرافي، أسطوري، تخيلي) على العجز، وعلى المهدِّد والخطر والخشية من عودة الخوف الأول، الخوف من سلطة القامع المستبد والقادر على الإخصاء، على الطرد والإبعاد" (ص 271).

وهكذا فالدكتور زيعور يرى إذن في فكر الشيخ عبده التربوي فكراً ذا جدوى وفاعلية. فبنظره هذا الفكر هو "فكر رخو وقول نخبوي، هش، وأبوي وعمومي وغير شوراني، وهو سلاح يستخدم في غير مكانه وبطيء المردود، وملقى على الزمان أو على الوهم بأن الجلاد، المُخصي، يكون رؤوفاً بالضحية ويتعاطف معك". والدكتور زيعور في هذا الموقف يعتمد على

"في عقله النفسي التربوي، ينقل مسبب الانجراح الحضاري الممثل بالقواهر والعواهر المستبدة البريطانية إلى مكان آخر، إلى ساحة مختلفة وعدو داخلي يقر الجميع بوجوده، ويضفون [= يسقطون] عليه آثامهم ومشاعر المرارة وفشل استراتيجيات الجهاد التنويراني

إن الحل التربوي النهضوي دفاعي، مرضي وتعويضي... إنه تمرد وهمي (رمزي، خرافي، أسطوري، تخيلي) على العجز، وعلى المهدِّد والخطر والخشية من عودة الخوف الأول، الخوف من سلطة القامع المستبد والقادر على الإخصاء، على الطرد والإبعاد"

هذه التحاليل أو بالأحرى هذه المحاكمة لفكر الشيخ عبده التي تكتنفها إشكالات تثير تساؤلات مختلفة هي – كما يذهب الدكتور زيعور – كاشفة للأوالية

ما كتبه الشيخ عبده في التربويات عام 1876، في جريدة الأهرام (السنة الأولى، عدد 18 وما يليه) وكان يومها طالباً في الأزهر، أي هو لم يكن أنضج لا فكراً دينياً ولا فكراً تربوياً... هو يكتب أفكاراً أمدته بها تجربته الخاصة. والدكتور زيعور يقر بأن هذا الخطاب هو "خطاب نفسي وتجربة وأحوال" (ص 271). ولا يتوقف عن تكرار الفكرة بأن هذا الخطاب هو الحل بتوتر أو انجراح نجم عن فقدان السيطرة على الذات والوطن وعن انقسام الأنا بين متكافئين هما النفور من السلطة ولا بدية إطاعتها". ولذلك فإن هذه التربويات هي – بنظره – "منتوج أوالية ناقصة وسيئة ولا تحقق الاحتماء... إلا بوسائل دفاعية عطوبة، أي ريثماوية وغير مباشرة" (ص 272).

المحورية أو أوالية الشيخ عبده الدفاعية أمام السلطة والقهر، أو بعبارة أخرى كاشفة عن الجذور اللاواعية لسلوك الشيخ عبده

هذه التحاليل أو بالأحرى هذه المحاكمة لفكر الشيخ عبده التي تكتنفها إشكالات تثير تساؤلات مختلفة هي – كما يذهب الدكتور زيعور – كاشفة للأوالية المحورية أو أوالية الشيخ عبده الدفاعية أمام السلطة والقهر، أو بعبارة أخرى كاشفة عن الجذور اللاواعية لسلوك الشيخ عبده. والدكتور زيعور، لذلك، يرجع إلى عمره الأول أو العمر التحصيلي الذي كان فيه الشيخ عبده يهرب ويختفي ويخفي الحقيقة عن أبيه. هذا السلوك هو بنظر الدكتور زيعور لم يتغير بعد أن اجتاز الشيخ عبده مرحلة الطالبية ودخل معترك الحياة، "لقد كانت أواليته – كما يقول الدكتور زيعور – تتمثل بالتغطي وعدم مجابهة المثيرات والقمع". ولكن أين كان التغطي وعدم المجابهة وهو قد انضم – كما ذكرنا – إلى جمال الدين الأفغاني، ثم إلى ثورة عرابي باشا، ثم مرة ثانية إلى جمال الدين الأفغاني في باريس، وما تبع هذا اللحاق بجمال الدين في باريس من إنشاء مجلة تدعو الشعوب الإسلامية إلى الثورة على الاستعمار والظلم؟ هل كان في هذا السلوك للوصول إلى هدفه "وسائل – كما يقول الدكتور زيعور – غير دقيقة، مخاتلة ومخادعة، أو ازدواجية في الخطاب، أو فصل القول عن العمل، والحقيقة عن الرغبة؟ التساؤل الذي يفرض نفسه أمام هذه المحاكمة هو أن نعرف ماذا كان على الشيخ عبده أن يفعل غير الذي فعله لمجابهة الاستعمار البريطاني في مصر؟ هل كان هناك. وهل سيكون هناك في الغد وفي كل مكان وزمان طريق آخر غير طريق جمع الصف بالكلمة ثم تكون بعدها الثورة من التحرر؟ وإذا فشل المسعى، فكيف يكون التصرف؟ الدكتور زيعور يحاكم ولا يعطي الحلول، هو يسد الطرق في تصوراته، وتحليله العلم نفسي يخرج عن ميدانه العلم نفسي في مواقف كثيرة.

التساؤل الذي يفرض نفسه أمام هذه المحاكمة هو أن نعرف ماذا كان على الشيخ عبده أن يفعل غير الذي فعله لمجابهة الاستعمار البريطاني في مصر؟

الدكتور زيعور يحاكم ولا يعطي الحلول، هو يسد الطرق في تصوراته، وتحليله العلم نفسي يخرج عن ميدانه العلم نفسي في مواقف كثيرة

* * *

غير أن هذه التحاليل تُظهر إلى حدّ ما موقفاً آخر، مختلفاً أحياناً اختلافاً بيّناً، حين تتناول حركة الشيخ عبده الاجتهادية في الدين والفلسفة والاجتماع، فكان سلوك التغطي والتخفي

الشيخ عبده يُظهر عند الدكتور زيعور بهذا الصدد كمؤسس "الفلسفة النسوية" في الفكر العربي الاجتهادي أو لنقل كما جاء على لسان

والازدواجية يتحول إلى سلوك آخر، وهو ما يتعارض مع ما رأينا الدكتور زيعور يتوصل إليه من ناحية أن الشيخ عبده كانت واحدة أحادية جميع أساليبه في التكيف. فكيف ولماذا تغير سلوكه ولم يعد اجتهاده سلوكاً للتغطي؟

ينظر الدكتور زيعور في السيرة الذاتية للشيخ عبده، ليكشف – كما يقول – ما هو إلى الآن غير مكشوف.

ينظر ليكشف موقفه وعاطفته تجاه المرأة. هنا نجده يبين بأنه لا يجد إلماحات إلى حب أو تجربة عاطفية، إلى أنثى ساطعة جذبته. فحتى أمه تأخرت كثيراً السيرة الذاتية حتى أشارت إليها. ويذهب الدكتور زيعور إلى أنه "ربما يجوز الكلام عن جفاف عاطفي". ولكن الدكتور زيعور يستدرك هذا الافتراض ليبين بأن الشيخ عبده قد كتب سيرته بقلم كهل وعمر إمام ووظيفة مجتهد.. وكان بالتالي أن كتب فقط ما كان يجب عليه أن يتذكر (ص 274). غير أن الجدير بالذكر هو أن الشيخ عبده – كما يبين الدكتور زيعور – عاش حياة اجتماعية ضاجة صاخبة، التقى فيها بنساء وأجنبيات لاحظ أنهن صالحات للرئاسة.. وتمتعات بقدرات.. مساوية أو متفوقة أمام قدرات الرجال، ورأى المرأة الناجحة في زيارته لأوروبا. الدكتور زيعور يتساءل ما إذا كان لهذا السبب أعمل الشيخ عبده عقله للتطور والمعاصرة، ولكنه مع ذلك يستدرك لينبش العوامل المطمورة والنسية وهي أنه كان للشيخ عبده ثلاث بنات في أسرته. وهذا الواقع لعب دوره، في نظر الدكتور زيعور، لجعل البنت ترتفع عند الشيخ عبده إلى مستوى الصبي. وهنا يجد الدكتور زيعور أوالية إبدال وتعويض. والشيخ عبده يُظهر عند الدكتور زيعور بهذا الصدد كمؤسس "الفلسفة النسوية" في الفكر العربي الاجتهادي أو لنقل كما جاء على لسان الدكتور زيعور "مؤسس مدرسة في الاجتهاد الحضاري الموسع" وهي مدرسة الأفغاني وعبده (ص 274 – 275).

الدكتور زيعور يبين بأن هذه المدرسة أعملت العقل والمنطق الاجتهادي في إعادة بنية الحضارة والإنسان، وفي إعادة ضبط الطبيعة والبيئة والتكيف المرن والتطور الخلاق (ص 275).

هذه المدرسة سُميت – كما يذكر الدكتور زيعور – بالتنويرانية العربية الأولى لأنها شغلت أفهومات التنوير بالعقل وتمحورت حول الثقة بالإنسان وبقدرته على التشريع. وهي هضمت ثم صقلت خصائص المعاصرة وروح الحداثة وديناميات الحضارة الصناعية، وهي بذلك حملت اسم التجربة العربية الأولى في الحداثة وصنع الحداثة" (ص 275 – 276).

وإلى جانب ذلك كله هي "مدرسة نظرت في المحض أو العقل النظري المحض"، فالحقيقة مطوية في ذاتها ولذاتها.

الدكتور زيعور "مؤسس مدرسة في الاجتهاد الحضاري الموسع" وهي مدرسة الأفغاني وعبده

هذه المدرسة سُميت – كما يذكر الدكتور زيعور – بالتنويرانية العربية الأولى لأنها شغلت أفهومات التنوير بالعقل وتمحورت حول الثقة بالإنسان وبقدرته على التشريع. وهي هضمت ثم صقلت خصائص المعاصرة وروح الحداثة وديناميات الحضارة الصناعية، وهي بذلك حملت اسم التجربة العربية الأولى في الحداثة وصنع الحداثة"

الدكتور زيعور يشير إلى أنه هنا "يسجل للإمام اجتهاد حضاري تنويراني متفاعل مع المعاصرة ومفاهيم الحداثة والأنوار ومفهوم بإعادة فهم ومدنية التربية الفنية"

وهي نظرت في الفن أو العقل الجمالي وفي القيميات والخير والسعادة. والدكتور زيعور يشير إلى أنه هنا "يسجل للإمام اجتهاد حضاري تنويراني متفاعل مع المعاصرة ومفاهيم الحداثة والأنوار ومهموم بإعادة فهم ومدنية التربية الفنية". ويبين الدكتور زيعور أن الشيخ عبده أعاد التفسير الاجتهادي الموسع للاعتقاد الراكد بتحريم الدين للأنحوتة والأغنية والتمثلة (إقامة التماثيل) والتصوير الوجهي للإنسان والحيوان (ص 276).

* * *

تلك هي بصورة عامة المواقف التي تظهر واضحة في دراسة الدكتور زيعور التحليلية العلم نفسية والتي هي مواقف مزدوجة الوجه. ذلك أن الدكتور زيعور أظهر الشيخ عبده – كما رأينا – من جهة متأثراً مسيراً إلى حد كبير بنزوات المراهقة حتى في كهولته المنخرطة في الدين والاجتماع والسياسة، ومن جهة أخرى أظهره "منصة انطلاق للتطور والتطوير والبقائية والانتقائية الطبيعية كما المجتمعية" وأظهر بالتالي خطابه "خطاباً مؤسساً للقول الفلسفي الراهن في الجماليات وفلسفة الفن وكذلك في المعرفيات أو العلوم والعقل (ص 276 – 277) فهل وجهة النظر الأخيرة هذه نسخت وجهة النظر الأولى وبالتالي لم يعد الشيخ عبده متأثراً، خاضعاً، مسيراً إلى حد ما بوعي أو بدون وعي بنزوات المراهقة؟

الدكتور زيعور الذي يتناقض هنا في مواقفه يُظهر مع ذلك كله ميلاً واضحاً إلى وجهة النظر الثانية. أي إن الشيخ عبده تجاوز، منذ شبابه "بعد زواجه واهتدائه إلى الدين الحقيقي"، أزمات المراهقة التي قد يمر بها كل إنسان سوي، هذه الأزمات التي سرعان ما تذوب في الذات بفعل النضج ليحل محلها العقل والتعقل، التبصر والتروي.. وتلك كانت حالة الشيخ محمد عبده.

الشيخ عبده أعاد التفسير الاجتهادي الموسع للاعتقاد الراكد بتحريم الدين للأنحوتة والأغنية والتمثلة (إقامة التماثيل) والتصوير الوجهي للإنسان والحيوان

الشيخ عبده تجاوز، منذ شبابه "بعد زواجه واهتدائه إلى الدين الحقيقي"، أزمات المراهقة التي قد يمر بها كل إنسان سوي، هذه الأزمات التي سرعان ما تذوب في الذات بفعل النضج ليحل محلها العقل والتعقل، التبصر والتروي.. وتلك كانت حالة الشيخ محمد عبده

*** ***

ARABPSYNET PRIZE 2013

جائزة يحيى الرخاوي لشبكة العلوم النفسية العربية 2013

مخصصة هذا العام للطب النفسي

www.arabpsynet.com/Prize2013/APNprize2013.pdf

*** ***

في الذكرى العاشرة لتأسيسها (جوان 2013)

الشبكة تسعى لتكريم مجموعة من العلماء بإسنادهم لقب

" الراسخون في العلوم النفسية"

www.arabpsynet.com/Documents/Doc.TurkyPsyExcellent.pdf